الإسكندريَّة – بُرج العرب
شباب وشابات مصر الجديدة
الجُمعة ١٣ سبتمبر سنة ٢٠١٥م

إيبارشيَّة لوس أنجيلوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
شعب كنيسة مار جرجس Bellflower
الجُمعة ٢٠ نوفمبر سنة ٢٠١٥م

خلقة الإنسان الثَّانية من فوق .. من الماء والرُّوح
المعموديَّة بالمفهوم الرُّوحي، كمدخل للخليقة الرُّوحانيَّة الجديدة

الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

المحتويات

مقدِّمة ١
أوَّلاً: الخليقة الأولى ١
(١) خلقة الكائنات ١
(٢) خلقة الإنسان ٣
تفرُّد الإنسان في خلقته عن باقي الكائنات الأُخرى ٤
ثانياً: لماذا لم يعيد الله خلقتنا الثَّانية بمجرَّد النُّطق «نعمل» كما في خلقتنا الأولى؟ ٥
(١) هل كان يكفي فقط مجرَّد صدور أمر ملكي، بالغُفران؟ ٥
(٢) الموت والفساد قد لصق بالجسد وامتزج به، فكان مطلوباً أن تمتزج به الحياة لتبيد الموت ٥
ثالثاً: الخليقة الثَّانية الرُّوحانيَّة من الماء والرُّوح ٦
(١) في التَّقليد الكتابي ٦
(٢) في التَّقليد الآبائي ٧
ماذا يعني إعادة تجديد الإنسان لكي يكون على صورة الله، عند آباء الكنيسة؟ ٧
الرُّوح القُدُس الذي نزل واستقر على المسيح في مياه الأردن كان من أجلنا نحن ٧
الرُّوح القُدُس هو الذي يطبع صورة المسيح فينا، أي أنَّ المسيح يتصوَّر فينا بالرُّوح القُدُس ٨

مقدِّمة

يقول السيِّد المسيح: «ينبغي أن تولدوا من فوق» (يوحنَّا ٣:٧). والقدِّيس يوحنَّا الحبيب يشرح ذلك بقوله: «الذين ولدوا ليس من دم ومن مشيئة جسد، ولا من مشيئة رَجُل، بل من الله ولدوا» (يوحنَّا ١:١٣). ويزيد الرَّسول بطرس الأمر شرحاً حين يقول: «مولودين ثانية لا من زرع يفنى، بل ممَّا لا يفنى، بكلمة الله الحيَّة الباقية إلى الأبد» (١بطرس ١:٢٣).

فحديثنا عن خلقة الإنسان الثَّانية، أو إعادة خلقته من جديد، يستوجب أن نعرف شيئاً عن الخلقة الأولى، سواء للكائنات على وجه العموم، أو للإنسان على وجه التَّحديد.

أوَّلاً: الخليقة الأولى

(١) خلقة الكائنات

يقول سفر التَّكوين: «في البدء خلق الله السَّماوات والأرض، وكانت الأرض خربة[١] وخاوية[٢]، وعلى وجه الغمر

١- كلمة "خربة" جاءت في ترجمة KJV "بدون شكل" without form وهو نفس ما تعنيه التَّرجمة العبريَّة. وأمَّا في التَّرجمة السَّبعينيَّة

ظُلمة، وروح الله يرف على وجه المياه. وقال الله: ليكن نور، فكان نور» (تكوين ١:١-٣).

وقبل أن أسترسل في الحديث، أتوقَّف هنا عند قول العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) في مقدِّمة شرحه لسفر التَّكوين، حيث يقول:

[إن كان يجبُ علينا أن نقول شيئاً عن هذه الأسرار العميقة، إلاَّ أننا لا نتجرأ أن نحسم فيها بجسارة. لأنَّ الحسم في هذه الأمور بدون تحفُّظ، يستلزم إمَّا فقدان الحس، أو أن يكون المرء من أولئك المختارين الذين يستطيعون أن يتلقَّنوا المعرفة من الرَّب يسوع نفسه، أو بالحري من أولئك الذين دخلوا وسط السَّحاب حيث يسكن الله، وهناك تلقَّنوا من السَّماء الكلمات الإلهيَّة. فإذا كان موسى نفسه قد استطاع بالكاد أن يخترق هذه الأعماق ويتفحَّصها ويُعبِّر عنها، إلاَّ أنه من جهتنا نحن، فإنه على قدر القليل الذي لنا، نؤمن بالرَّب يسوع المسيح، ونفتخر بأننا من تلاميذه، ولكنَّنا لا نتجاسر أن نقول إننا تقبَّلنا منه إدراك الكُتُب المقدَّسة وجهاً لوجه، ولا نجرأ أن نتكلَّم بسُلطان مثل الرُّسُل، ولكن بينما آخرون يؤكِّدون بتعال وبدون سند اختلاقات عقولهم، فإننا من جهتنا، نعترف بقصورنا عن معرفة ما يفوق إدراكنا][٣].

- **البدء هنا ليس هو الأزل**

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[معلومٌ أنَّ الكائنات لم تُخلق من تلقاء ذاتها ... كما أنها لم تُخلق من مادة موجودة من قبل ... ولكن الله خلق الكون من العدم، ومن غير سبق وجوده مطلقاً، **بكلمته**، كما يقول (أولاً) على لسان موسى «في البدء خلق الله السَّموات والأرض»[٤] ... وإلى هذا يشير أيضاً بولس إذ يقول «بالإيمان نفهم أنَّ العالمين **أُتقنت بكلمة الله**، حتى لم يتكوَّن ما يُرى ممَّا هو ظاهر»[٥]][٦].

ويقول العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م):

[في البدء خلق الله السَّموات والأرض. فما هو بدء كلِّ شيء، سوى ربِّنا يسوع المسيح ... فالكتاب هنا لم يحدِّد أيَّة بداية زمنيَّة، ولكنَّه قال إنه في البدء، أي في المُخلِّص صُنعت السَّماء والأرض، وكلُّ ما صُنع][٧].

- **العدم ليس هو الأزل**

فيقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[**الخلائق قد أتت من العدم، إذ لها بداية لوجودها**. لأنه «في البدء خلق الله السَّموات والأرض» (تكوين ١:١) وكلَّ ما هو موجود فيها][٨].

ويقول أيضاً:

[الله على الرَّغم من أنه كان قادراً أن يخلق العالم منذ الأزل، ولكن الحقيقة أنَّ الأشياء المخلوقة يستحيل عليها

فالكلمة هي ἀόρατος أي ''غير مرئيَّة''. وترجمت في الإنجليزيَّة إلى unsightly أي ''بشعة أو شنيعة أو قبيحة''. وهو ما يعنيه القدِّيس بولس الرَّسول: «بالإيمان نفهم، أنَّ العالمين أتقنت بكلمة الله، حتى لم يتكوَّن ما يرى ممَّا هو ظاهر» (عبرانيِّين ١١:٣)

٢- كلمة ''خاوية'' جاءت في ترجمة KJV ''خلاء أو فراغ أو فضاء'' void . وفي العبريَّة، ''بلا أي مظهر للحياة''. وأمَّا في التَّرجمة السَّبعينيَّة، فالكلمة هي ἀκατασκεύαστος أي ''غير مهيأة'' وتُرجمت في الإنجليزيَّة إلى unfurnished أي ''غير مفروشة أو غير مؤثثة''.

3- *PG* 12, 45-46.

٤- تكوين ١:١

٥- عبرانيِّين ٤:١١

٦- تجسُّد الكلمة ٣:١، ٢

7- *Hom. I sur la Gen*. (*SC*. 7 bis, p. 24)

٨- رسائل القدِّيس أثناسيوس عن الرُّوح القُدُس، ٢٢:١

أن توجد منذ الأزل، لأنها خُلقت من العدم][٩].

• **الله أي إلوهيم**

تعبير «خلق الله السَّموات والأرض»، يأتي فيه اسم الله في العبريَّة ''إلوهيم'' وهو هنا في صيغة الجمع، حيث يتكرَّر هذا الاسم ''إلوهيم'' في الأصحاح الأوَّل من سفر التَّكوين ٣٥ مرَّة. ومع ذلك فإنَّ الفعل الملازم له سواء كان ''خلق''، أو ''قال'' يأتي دائماً في صيغة المفرد. إلاَّ في خلقة الإنسان، حيث جاء الفعل ''نعمل''. وهو ما سيأتي شرحه فيما بعد.

يقول القدِّيس كيرلُّس الكبير:

[الله الآب يُعطي الحياة لكلِّ الأشياء بالابن في الرُّوح القُدُس؛ وكلُّ ما يوجد ويتنفَّس في السَّماء وعلى الأرض، إنما يأخذ وجوده وحياته من الله الآب بالابن في الرُّوح القُدُس. لذلك، لا طبيعة الملائكة ولا أيّ شيء آخر مهما كان، ممّا هو مخلوق، ولا أيّ شيء جاء من عدم الموجود إلى الوجود، يمتلك حياة (في ذاته) كثمرة لطبيعته الخاصة؛ بينما على العكس، فالحياة تنشأ – كما قلت – من الجوهر الذى يفوق الكلّ، وهو أمر خاص به وحده أن تكون له القدرة على إعطاء حياة، وذلك بسبب أنه هو بالطَّبيعة الحياة] (عظة ١٤٢ على لوقا ٢٢).

إذاً، فالخلقة الأولى للكائنات، كانت من الماء والرُّوح والكلمة.

(٢) خلقة الإنسان

«وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا ... فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله» (تكوين ١:٢٦، ٢٧).

«وجعل الرَّب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة[١٠]، فصار آدم نفساً حية» (تكوين ٢:٧).

• **وقال إلوهيم نعمل ...**

يقول القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠–٣٧٩م):

[«نعمل الإنسان» ... هذه الكلمة لم تُستخدم من قبل في أي من الكائنات التي صُنعت ... لاحظ الكرامة التي تختص بك. فإنه لم يستدع وجودك بأمر، ولكن كان هناك تشاور في الله من أجل أسلوب الدُّخول إلى الحياة،

9- Orthodox Theology, An introduction, V. Lossky, p. 61.

١٠- لم يتعرَّض آباء الكنيسة برغم كثرتهم، لهذا الموضوع، إلاَّ القليلين منهم. فيرى القدِّيس إيريناؤس (١٣٠–٢٠٠م) أنَّ نسمة الحياة هي النَّفس البشريَّة. فيقول في الفرق بين الحياة والموت، وبين نسمة الحياة والرُّوح المحيي: [يقول إشعياء النَّبي: «ابتُلع الموتُ بقوةٍ» (إشعياء ٢٥: ٨ حسب التَّرجمة السَّبعينيَّة)، وهكذا زالت الحياة الأولى لأنها لم تكن قد أُعطِيت بالرُّوح القُدُس، بل بنسمة الحياة. فإنَّ نسمة الحياة التي جَعلت الإنسان نفسًا حيّةً هي شيءٌ، والرُّوح المُحيي شيءٌ آخر] (ضدَّ الهرطقات ٥: ١٢ :١-٢).

أمَّا القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢–٤٤٤م)، فيرى أنَّ نسمة الحياة، تعني الرُّوح القُدُس، فيقول: [الله الآب في البداءة بواسطة كلمته الخاص، قد أخذ تراباً من الأرض كما هو مكتوب، وجَبَلَ الكائن الحيّ – أعني الإنسان – وزوَّده بنفسٍ عاقلة، بالطَّريقة التي يعلمها هو، وأناره بشركة روحه الخاص، لأنه «نفخ في وجهه نسمة حياة» كما هو مكتوب] (تفسير يوحنَّا ٢٠:٢٢). كما يقول أيضاً: [لا يوجد أيُّ إنسان ذو تفكير سليم، يمكن أن يفترض أنَّ النَّسمة التي صدرت من الجوهر الإلهي، صارت نفسًا مخلوقة، بل إنه بعد أن صار للمخلوق نفس، أو بالحري بعد أن بلغ إلى كمال طبيعته بوجود النَّفْس والجسد معًا، فإنَّ الخالق طبع عليه خَتم الرُّوح القُدُس أي ختم طبيعته الخاصة، أي نسمة الحياة، والتي بواسطتها صار المخلوق مشكّلاً بحسب الجمال الأصلي، واكتمل 'على صورة ذاك الذي خلقه'، وهكذا وُهبت له الإمكانيَّة لكلِّ شكل من أشكال السُّمو، بفضل الرُّوح الذي أُعطي له ليسكن فيه. ولكن لأنه يملك حريَّة الإرادة ليتصرَّف في أغراضه الخاصة – لأنَّ هذه الحريَّة هي إحدى عناصر الصُّورة، مثلما أنَّ الله الذي خلقه له السُّلطان على أهدافه الخاصة به، ولكن المخلوق تحوَّل وسقط] (شرح إنجيل يوحنَّا ١٤:٢٠).

كما أنه يكرِّر نفس القَول في كتابه: ''الحوار الرَّابع عن الثَّالوث''، حيث يذكر أنَّ الرُّوح القُدُس قد فارق آدم لمَّا سقط في المعصية. ولكنَّه يعود ويقول: إنَّ كيفيَّة وجود النَّفْس في الإنسان، [سرٌّ مُغلق لا يعرفه إلاَّ الله].

Cf. *PG* 75, 908.

لذلك الكائن الحي المستحق للكرامة ... حتى تمجِّد أنت الآب في الابن، والابن في الرُّوح القُدُس ...][11].

- **على صورتنا كشبهنا ...**

يتكلَّم كثيرٌ من آباء الكنيسة مثل القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م)، والعلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، والعلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م)، وغيرهم، عن الفرق بين الصُّورة والشَّبَه، أو بين الصُّورة والمثال، فيقولون: 'بأنَّ الإنسان مخلوق على صورة الله، مع إمكانيةٍ تمكِّنه من أن يبلغ إلى مثال الله، حين يبلغ إلى كمال الفضيلة والقداسة'. وهي فكرة مأخوذة من فيلو الفيلسوف اليهودي (١٣ق.م-٥٠ب.م)، والذي يقول بأنَّ الشَّبَه هو ببساطة الصُّورة الأكثر اكتمالاً.

وأمَّا القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي ومعه القدِّيس كيرلُّس الكبير، ومعهما القدِّيس غريغوريوس النَّزينزي (٣٢٩-٣٨٩م)، والقدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م)، وغيرهم، فلا يفرِّقون بين الصُّورة والشَّبَه، أو الصُّورة والمثال.

فيقول القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م):

[إذا قالوا إنَّ قوله «على صورته» و«على شبهه» لهما معنيان مختلفان، فليظهروا لنا الفرق. لأنه في اعتقادنا أنَّ قوله «على صورته» لا تعني شيئاً آخر غير قوله «على شبهه» ... فيلزم أن نفهم من ذلك، أنه يكفي القَول بأحدهما لكي يعني نفس الشَّيء][12].

- **وجعل الرَّب الإله آدم تراباً من الأرض**

يقول القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م):

[كان الله الآب في البداءة بواسطة كلمته الخاص، قد أخذ تراباً من الأرض كما هو مكتوب، وجَبَلَ الكائن الحيّ – أعني الإنسان – وزوَّده بنفس عاقلة، بالطَّريقة التي يعلمها هو، وأناره بشركة روحه الخاص، لأنه «نفخ في وجهه نسمة حياة» كما هو مكتوب] (تفسير يوحنَّا ٢٠:٢٢).

تفرُّد الإنسان في خلقته عن باقي الكائنات الأُخرى

بحسب اللاَّهوت الإسكندري، فإنَّ الإنسان ينفرد في خلقته عن باقي المخلوقات، بأنه خُلق على صورة الله ومثاله. وأنَّ صورة الله في الإنسان، كامنة في طبيعة النَّفْس الخالدة، ومن ثمَّ، فلها القدرة على إدراك الله ومعرفته، والتَّأمُّل فيه. كما أنَّ الإنسان هو كائن عاقل ناطق، يملك حرية الاختيار. وجدير بالذِّكر هنا، أنَّ النُّصوص الخاصة بصورة الله في الإنسان، والتي جاءت في العهد الجديد، لا تشير إلى صورة المسيح فينا حسب الجسد «إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله، ولبستم الجديد الذي يتجدَّد للمعرفة حسب صورة خالقه» (كولوسي ٣:٩، ١٠).

وبحسب رأي القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م)، فإنَّ الإنسان عندما خُلق منذ البداية، كانت له خاصيَّة القدرة على معرفة خالقه وصانعه. وهو يبني قوله هذا، على ما قاله البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، حيث يقول:

[لم يكتف (الله) بمجرَّد خلقته للإنسان، كما خلق باقي المخلوقات غير العاقلة على الأرض، بل خلقه على صورته ومثاله، وأعطاه نصيباً حتى في قوَّة كلمته، لكي يستطيع وله نوع من ظل الكلمة، وقد خُلق عاقلاً، أن يبقى في السَّعادة أبداً، ويحيا الحياة الحقيقيَّة، حياة القديسين في الفردوس] (تجسُّد الكلمة ٣:٣).

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي أيضاً:

[المخلوقات لم تستطع بأي حال أن تُدرك وتعرف خالقها – لهذا تحنَّن الله على الجنس البشري على قدر صلاحه،

11- St. Basil, *On the Origin of man* 1:3-4, p. 177-175

12- Cyril, *De dogmatum solutione* 3 (Pusey 3, 555-57).

مقتبس عن: شرح سفر التَّكوين سفر البدايات، لأحد رُهبان دير القدِّيس أنبا مقار، الطَّبعة الأولى ٢٠٠٥م، ص ٧٦

و لم يتركهم خالين من معرفته، لئلا يروا أن لا منفعة على الإطلاق من وجودهم في الحياة] (تجسُّد الكلمة ١:١١).

والإنسان خُلق وله حرية الاختيار، ولكنَّه باختياره سقط. ويقول العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م):
[إنك إذا جرَّدت الفضيلة من عنصر الاختيار، فإنك تنزع منها جوهرها أيضاً] (ضدَّ كلسوس ٣:٤).

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير أيضاً:
[... لأننا قد خُلقنا بواسطة الله، كما بواسطة فخَّاري، من تُراب الأرض. ولكن ليس لهذا الأمر فحسب تنبُع كرامة الطَّبيعة البشريَّة؛ فهناك شيء أعظم يكمُن فينا، هو هبة النِّعمة من قدرة الله المبدعة. فحقيقة الأمر، أننا قد صُنعنا على صورته كشبهه، وقد أُغنينا بطابع مجده الذي يشع روحياً في داخل نفوسنا، حتى ولو كنَّا حسب الجسد تراب من التُّراب. فالإنسان إذاً ليس شيئاً محتقراً، بل هو مخلوقٌ عجيب على الأرض][١٣].

ثانياً: لماذا لم يعيد الله خلقتنا الثَّانية بجرَّد النُّطق «نعمل» كما في خلقتنا الأولى؟

(١) هل كان يكفي فقط مجرَّد صدور أمر ملكي، بالغُفران؟

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:
[... يقولون ... إنْ كان الله قد أراد أن يُصلح البشريَّة ويخلِّصَها، وجب أن يتمِّم ذلك بمجرَّد نُطقٍ ملكي كريم، دون حاجة إلى تجسُّد الكلمة، أي بنفس الطَّريقة التي اتبعها سابقاً، عندما أوجدها من العَدَم.

وعن اعتراضهم هذا نجيبهم جواباً معقولاً قائلين: سابقاً لم يكن شيءٌ موجوداً على الإطلاق، فالذي كان مطلوباً لخلقة كلِّ شيء، هو النُّطق الملكي، ثمَّ مجرَّد الإرادة لإتمام ذلك. أمَّا وقد خُلق الإنسان، وأصبح الأمرُ يحتاج إلى علاج ما هو موجود ... لهذا السَّبب، ولكي يُبرئ الموجود، دعت الضَّرورة بطبيعة الحال، أن يظهر الطَّبيب، والمُخلِّص تأنَّس، واستخدم جسدَه أداةً بشريَّة ... ومن أين كان ممكناً أن يتَّخذها سوى من الموجودين فعلاً، الذين هم في حاجة إلى لاهوته بواسطة شخص مشابه لهم؟ لأنَّ الخلاص لم يكن مطلوباً لما ليس له وجود حتى كان يكفي مجرَّد صدور أمر، ولكن الإنسان الذي كان موجوداً فعلاً، كان منحدراً إلى الفساد والهلاك. لهذا كان طبيعياً وعدلاً أن يستخدم ''الكلمة'' أداة بشريَّة، ويُعلن نفسه في كلِّ مكان] (تجسُّد الكلمة ٤٤:١-٣).

(٢) الموت والفساد قد لصق بالجسد وامتزج به، فكان مطلوباً أن تمتزج به الحياة لتبيد الموت

[الفساد الذي حصل، لم يكن خارج الجسد بل لصق به، وكان مطلوباً أن تلتصق به الحياة عوض الفساد، حتى كما تمكَّن الموت من الجسد، تتمكَّن منه الحياة أيضاً.

والآن لو كان الموت خارج الجسد، لكان من اللاَّئق أن تتَّصل به الحياة من الخارج. أمَّا وقد صار الموت ممتزجاً بالجسد وسائداً عليه، كما لو كان متَّحداً به، فكان مطلوباً أن تمتزج الحياة به أيضاً، حتى إذا ما لبس الجسد الحياة بدل الموت، نُزع عنه الفساد.

وفضلاً عن هذا، فلو افترضنا أنَّ ''الكلمة'' جاء خارج الجسد وليس فيه، لكان الموت قد غُلب منه (من المسيح) وفقاً للطَّبيعة، إذ ليس للموت سُلطان على ''الحياة''، أمَّا الفساد اللاَّصق بالجسد، فكان قد بقى فيه رغم ذلك.

لهذا السَّبب كان معقولاً جداً أن يلبس المخلِّص جسداً، حتى إذا ما اتَّحد الجسد ''بالحياة''، لا يبقى في الموت كمائت، بل يقوم إلى عدم الموت، إذ يلبس عدم الموت. وما دام قد لبس (الجسد) الفساد، فما كان ممكناً أن يظهر

13- *In Isaiam* 4, 2 (*PG* 70, 960).

الموت إلا في الجسد وفقاً لطبيعته، لهذا لبس (المسيح) جسداً لكي يلتقي بالموت في الجسد ويُبيدَه. لأنه كيف كان ممكناً إقامة الدَّليلِ على أنَّ الرَّبَّ هو "الحياة"، لو لم يكن قد أحيا ما كان مائتاً؟[١٤].

والمعلوم أنَّ القش تفنيه النَّار بطبيعة الحال. فلنفرض أنَّ إنساناً أبعد النَّار عن القش. فإنَّ القش ولو لم يحترق، يبقى رغماً عن ذلك مجرَّد قش، يخشى خطرَ النَّار، لأنَّ للنَّار خاصيَّة إحراقِه. بينما لو أحاطه بمادة الأسبستوس – التي يُقال عنها[١٥] إنها تصمد أمام النَّار – فإنَّ القشَّ لا يرهب النَّار فيما بعد، إذ قد تحصَّن بإحاطته بمادة غيرِ قابلة للاحتراق.

كذلك أيضاً بنفس هذه الطَّريقة يستطيعُ المرء أن يقول عن الجسد والموت، إنه لو كان الموتُ قد أُبعد عن الجسد بمجرَّد إصدار أمر من الله، لبقى – رغم ذلك – قابلاً للموت والفساد حسب طبيعة الأجساد. ولكن، لكي لا يكون هذا حالُ الجسد، فقد لبسَ الجسدَ كلمةُ الله الخالي من الجسد، ولذلك فإنه لا يعود يرهب الموت أو الفساد، لأنه لبسَ الحياة كثوب، ولأنَّ الفساد قد أُبيد فيه] (تجسُّد الكلمة ٤٤:٤-٨).

• ولكن يبقى السؤال قائماً، كيف يمكن أن يتحقَّق فينا فعل خلاص المسيح، وإنقاذنا من الموت والفساد الذي لصق بنا؟ هنا يأتي دور الكنيسة، والمنوط بها إعطائنا كلَّ مفاعيل الخلاص التي منحها المسيح للمؤمنين به. لهذا كانت معموديَّة الماء والرُّوح، التي نلبس فيها المسيح، ونصير بواسطتها أبناء له، فلا يعود الموت والفساد يتسلَّط علينا فيما بعد.

ثالثاً: الخليقة الثَّانية الرُّوحانيَّة من الماء والرُّوح

(١) في التَّقليد الكتابي

• الحياة الجديدة، تعني عبورنا للموت مع المسيح، لنقوم فيه.

«فدُفنَّا معه بالمعموديَّة للموت. حتى كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضاً في جدَّة الحياة» (رومية ٦:٤).
«مدفونين معه في المعموديَّة، التي فيها أُقمتم أيضاً معه، بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كولوسي ٢:١٢).
«أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع المسيح، اعتمدنا لموته» (رومية ٦:٣).
«لأنَّ كلَّكم الذين اعتمدتم بالمسيح، قد لبستم المسيح» (غلاطية ٣:٢٧).
«وتلبسوا الإنسان الجديد، المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (أفسس ٤:٢٤).

• ويقارن الرَّسول بولس بين خلقة النُّور التي كانت في البدء، وبين خلقتنا الرُّوحيَّة في المسيح، فيقول:
«لأنَّ الله الذي قال أن يُشرق نور من ظُلمة، هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢كورنثوس ٤:٦).
ويقول يوحنَّا البشير عن السيِّد المسيح إنه «النُّور الحقيقي الذي يُنير كلَّ إنسان» (يوحنَّا ١:٩).
«ثمَّ كلَّمهم يسوع أيضاً قائلاً: أنا هو نور العالم، من يتبعني فلا يمشي في الظُّلمة، بل يكون له نور الحياة» (يوحنَّا ٨:١٢).
«ما دمتُ في العالم، فأنا نور العالم» (يوحنَّا ٩:٥).
«أنا جئت نوراً إلى العالم، حتى كل من يؤمن بي، لا يمكث في الظُّلمة» (يوحنَّا ١٢:٤٦).
«فيه كانت الحياة، والحياة كانت نورُ النَّاس» (يوحنَّا ١:٤).

• في تدبير الله، وفي فكره، قد خَلَقَنا الله فيه قبل تأسيس العالم، لنكون أبناءً لله، في الابن الوحيد، وعلى صورة الابن، في البر وقداسة الحق، وعلى شبه صورة ابنه في المجد والبهاء.

١٤– أي قابلاً للموت.
١٥– انظر فصل ٢٨ : ٦ ويظهر أنه لم يشهد تلك المادة.

«مباركٌ الله أبو ربِّنا يسوع المسيح، الذي باركنا بكلِّ بَرَكَة روحيَّة في السَّماويَّات في المسيح يسوع، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم، لنكون قدِّيسين وبلا لوم في المحبَّة، إذ سبق فعيَّنا للتَّبني بيسوع المسيح لنفسه، حسب مسرَّة مشيئته» (أفسس ١:٣-٥).
«لأنَّ الذين سبق فعرفهم، سبق فعيَّنهم ليكونوا مُشابهين صورة ابنه» (رومية ٨:٢٩).
«نتكلَّم بحكمة الله في سرّ، الحكمة المكتومة، التي سبق الله فعيَّنها قبل الدُّهور لمجدنا» (١كورنثوس ٢:٧).

(٢) في التَّقليد الآبائي

ماذا يعني إعادة تجديد الإنسان لكي يكون على صورة الله، عند آباء الكنيسة؟

يرى القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) أنه قد حصل للإنسان شَبَهٌ فائق للطَّبيعة وأكثر رفعة، عندما تقبَّلت النَّفس نفخة الرُّوح؛ وأن الكلمة المتجسِّد قد جدد الشبه بالله، معيداً صياغة الإنسان لكي يجعله شبيهاً بالآب من حيث الرُّوحانيَّة، وعدم الفساد، وعدم الموت.

وعند العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، أنَّ البار والقدِّيس العارف بالله، هو صورة الله، فهو إلهي ومقدَّس وحامل لله، ومحمول من الله. وهناك تقديس للنَّفس والجسد بقبول الرُّوح القُدُس.

وعند العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) أنَّ كلَّ من يُحب البر والقداسة ويحرص على تنفيذ ما أوصى به المُخلِّص، يصير صورة الله من كلِّ وجه.

وعند البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) أنَّ الإنسان يصير مماثلاً لصورة الله بقدر ما يكون مماثلاً للكلمة اللُّوغوس، وهو يصير مماثلاً للكلمة، إذا كان عاقلاً، ولكي يكون عاقلاً، ليس معناه أن يكون مجرد مدركاً فاهماً بالمفهوم المدرسي لأرسطو، ولكن أن يكون متأمِّلاً في الإلهيَّات. وهذا هو حال الإنسان في خلقته الأولى، وهذه هي دعوة كلِّ إنسان، وهذا هو امتياز جنسنا. ويقول قولته الشَّهيرة:
[إنَّ نقاوة النَّفْس، تؤهِّلُها لتتأمَّل الله داخلها، كما يقول الرَّب: «طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله»][١٦].

وعند القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) أن مشابهة الإنسان لله في أصح مفهوم لها هو في القداسة. فيقول:
[عندما نحفظ أنفسنا مؤمنين ومقدَّسين، يتصوَّر المسيح فينا بوضوح، وسماته الخاصة تشع في داخل عقولنا بجلاء][١٧].

الرُّوح القُدُس الذي نزل واستقر على المسيح في مياه الأردن كان من أجلنا نحن

يقول القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) في شرحه للآية «ويرتاح Αναπαύσεται عليه روح الله» (إشعياء ١١:١):
[لقد سبق أن مُنح الرُّوح في القديم لآدم باكورة جنسنا. ولكن هذا صار متهاوناً من جهة حفظ الوصيَّة المعطاة له، واستهتر بما أُمر به، فسقط في الخطيئة، وبالتَّالي لم يجد الرُّوح راحة ἀνάπαυσιν بين النَّاس، «لأنَّ الجميع زاغوا وفسدوا معاً، ليس مَنْ يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد» (رومية ٣:١٢). ثمَّ إنَّ الكلمة ابن الله الوحيد صار إنساناً، ولكن دون أن يتحوَّل عن كونه إلهاً. فلمَّا صار مثلنا، وهو غير قابل لأنْ ينساق نحو الخطايا، حينئذ ارتاح الرُّوح القُدُس في طبيعة الإنسان، فيه هو أوَّلاً بصفته الباكورة الثَّانية لجنسنا، حتى يرتاح فينا أيضاً، ويثبُت في نفوس المؤمنين، محباً للسُّكنى فيها ... فكما صرنا شركاء في الميراث مع أوَّل جبلتنا في الشُّرور التي أصابته، هكذا سنصير شركاء أيضاً في الخيرات الحادثة تدبيرياً للباكورة الثَّانية لجنسنا، الذي هو المسيح] (شرح إشعياء ١١:١).

١٦- ضدَّ الوثنيِّين ٢:٤ *NPNF.* 5

17- *De dogmatum solutione* 3.

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير أيضاً:

[آدم أبانا الأوَّل لمَّا تحوَّل بالغواية إلى المعصية والخطيئة، لم يحفظ نعمة الرُّوح، وبذلك فقدت أيضاً الطَّبيعة كلُّها فيه عطية الله الصَّالحة. فكان لابد أنَّ الله الكلمة الذي لا يعرف التَّغيير، يصير إنساناً، لكي إذ يقبل العطيَّة بصفته إنساناً، يحتفظ بها بدوام لطبيعتنا ... فقد صار الابن الوحيد إذن إنساناً مثلنا، لكي إذ يستعيد من جديد في نفسهِ أوَّلاً الخيرات الصَّالحة، ويجعل نعمة الرُّوح متأصِّلة من جديد ومنغرسة فيه، يتمكَّن بذلك أن يحفظها بثبات وبعدم تغيير لكلِّ طبيعتنا] (تفسير إنجيل يوحنَّا ٣٩:٧).

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) :

[الرَّب نفسه يقول بفمه في إنجيل يوحنَّا: «من أجلهم أقدِّس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحق» (يوحنَّا ٧: ١٩). كيف تمّ ذلك؟ وكيف يقول ذلك إلاَّ بما معناه: ''أنا كلِمَتُك أيها الآب، أُعطي الرُّوح القُدُس لذاتي الصَّائر إنساناً، وأُقدِّس به ذاتي الصَّائر إنساناً، حتى يكونوا جميعاً مقدَّسين فيَّ أنا الحق. فإن كان من أجلنا يقدِّس ذاته، ويفعل ذلك بعد أن صار إنساناً، فمن الواضح تماماً أنَّ حلول الرُّوح القُدُس عليه في الأردن، كان حلولاً للرُّوح علينا نحن، بسبب أنه كان لابساً جسدنا نحن. فلم يكن ذلك من أجل ارتقاء الكلمة ذاته، بل بالحري من أجل تقديسنا نحن، حتى نشترك في مسحته ويُقال عنَّا: «أما تعلمون أنكم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم؟» (١كورنثوس ١٦:٣)؟ فلمَّا اغتسل الرَّب في الأردن بصفته إنساناً، كنَّا نحن المغتسلين فيه وبواسطته، ولمَّا قَبِلَ الرُّوح القُدُس، كنَّا نحن الذين نقبله بواسطته] (ضدَّ الأريوسيِّين ٤٦:١، ٤٧).

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م):

[لمَّا صار كلمة الله إنساناً، اقتبل الرُّوح القُدُس من الآب كواحدٍ منَّا، ليس كمَن يقبل شيئاً لذاته، إذ أنه هو نفسه الذي يُوزِّع الرُّوح؛ بل لكي بقبوله الرُّوح كإنسان، يحفظه لطبيعتنا، ويجعل النِّعمة التي فارقتنا تتأصَّل من جديد فينا ... إذن، فهو قَبِلَ الرُّوح لحسابنا نحن بواسطة نفسه، لكي يستعيد لطبيعتنا ذلك الخير الأصلي ... فكما أنه مع كونه الحياة بطبعه قد مات بالجسد لأجلنا لكي يغلب الموت عنَّا، ويُقيم طبيعتنا كلَّها معه – لأننا جميعاً كنَّا فيه لكونه قد صار إنساناً – هكذا أيضاً هو يقبل الرُّوح لأجلنا، لكي يُقدِّس به طبيعتنا كلَّها. لأنه لم يأتِ لكونه محتاجاً شيئاً لنفسه، بل قد جاء ليصير لنا جميعاً باباً وبداية وطريقاً للخيرات السَّمائيَّة] (شرح إنجيل يوحنَّا ٣٢:١).

الرُّوح القُدُس هو الذي يطبع صورة المسيح فينا، أي أنَّ المسيح يتصوَّر فينا بالرُّوح القُدُس

فيقول القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م):

[الرُّوح القُدُس بكلِّ تأكيد لا يرسم الجوهر الإلهي فينا مثل رسَّام، فالأمر بالنِّسبة له شيء آخر بخلاف ذلك. فإنه ليس بهذه الطريقة يأتي بنا إلى شبه الله، بل بالحري، إذ هو الله نفسه، ومنبثق من الله، فإنه هو نفسه ينطبع بصورة غير مرئيَّة في قلوب أولئك الذين يقبلونه، مثل ختم في شمع. فمن خلال الشَّركة والمماثلة له، يرسم طبيعتنا تماماً لتطابق جمال الأصل الذي جُبلنا على صورته، ويجعل الإنسان مرَّة أُخرى على صورة الله][18].

ويقول أيضاً:

[الرُّوح هو الذي يجعلنا مماثلين للمسيح، وبواسطة الفضيلة الفعالة، تشع فينا سمات الله ... فإذا تمسكنا بها بقوَّة واعتزاز لكي نحمل صورة المُخلِّص الفائقة المجد، ولكي نتجدد إلى ذلك الجمال الإلهي السَّمائي، فلنجحد هذه الوصمة البشعة الشديدة القبح التي للخطيئة، ولنتجنب مبتعدين بأنفسنا كُليَّة عن ذلك الرُّوح المتهاون الذي يكون فريسة سهلة لهجمات الشيطان العنيد، ولنتصرف كرجال متمثلين بالمسيح، حتى نستحق أن نوجد شركاء في حياته] (العظة الفصحيَّة العاشرة).

18- *PG* 75, 609-612, *Thesaurus* 34.